

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾ (الآية: ٣)

تفنيد اتهامات تافهة

شرح الكلمات:

عَجَبًا: العجب: إنكار ما يَرُدُّ عليك؛ استطرافُ الشيء؛ روعةٌ تعزي الإنسان عند استعظام الشيء. والعجبُ من الله الرضى. (الأقرب) رجلا: الرجل: خلاف المرأة؛ الكامل في الرجولة. (الأقرب).
أوحينا: أصل الوحي: الإشارة السريعة (المفردات) وكلمة "الوحي" تطلق على كل الوسائل والطرق التي بها يخبر الله عباده بمشيئته سبحانه وتعالى. وأرى أن الله تعالى قد اختار كلمة الوحي اسمًا لكلامه لنعلم أن الأمور الروحانية لا يمكن بيانها بصورة كاملة بالكلمات، وإنما يمكن فقط الإشارة إليها. إذن فكلمة "الوحي" في حد ذاتها ترمز إلى رفعة الكلام الإلهي.
أَنْذِرْ: يقال: أَنْذَرَهُ بِالْأَمْرِ نَذْرًا وَنَذْرًا وَنَذْرًا وَنَذِيرًا: أَعْلَمَهُ وَحَدَّثَهُ مِنْ

أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ ﴿٣﴾

(سورة يونس)



من دروس: حضرة مرزا بشير الدين محمود أحمد

المصلح الموعود رحمته الله الخليفة الثاني

لسيدنا الإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام

عواقبه قبل حلوله. وأندَرَه: خوفه في إبلاغه، يقال أنذرت القوم سيرَ العدو إليهم فنذروا (الأقرب).

قدم: القَدَم: الرِجْل؛ السابقة في الأمر خيراً كان أم شراً. يقال: لفلان في كذا قدمٌ صدقٌ أو قدمٌ سوءٌ. والقَدَمُ: الرجلُ له مرتبةٌ في الخير؛ الشجاعُ. ووَضَعَ القَدَمَ في عمله: أخذ فيه. (الأقرب).

صدق: يعبر عن كل فعل فاضل ظاهراً أو باطناً بالصدق، فيضاف إليه ذلك الفعل الذي يوصف به نحو قوله تعالى ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ أو ﴿أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ﴾ و ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ و ﴿أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ (المفردات). وقوله تعالى: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ﴾ يعني أن أكسب خير الثناء ظاهراً وباطناً، أي لا يذكرني الناس بالخير في الظاهر فحسب، بل تبقى أعمالي الحسنة خالدة، فلا يكون مدحهم إياي مدحاً كاذباً.. أي لا يغالون في جبي فيقعوا في الإشراف بالله.

ويعني قوله تعالى: ﴿أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ أي اجعل دخولي في البلد وخروجي منه حسناً في ظاهرها وباطنهما، بمعنى لا تشوبهما شائبة

الجبين أو ضعف الإيمان، وأن تكون عواقبهما طيبة جداً.

ساحرٌ: السحر: كل ما لطف مأخذه ودق؛ الفساد؛ وقيل: السحر، إخراج الباطل في صورة الحق وإطلاقه على ما يفعله من الحيل حقيقة لغوية، ومنه: إن من البيان لسحراً. (الأقرب)

شأن النزول

لقد ذكر المفسرون في شأن نزول هذه الآية أن الكفار قالوا مستهزئين: ألم يجد الله رسولاً إلا يتيماً أبي طالب؟ فرد عليهم بهذه الآية وقال: لا غرابة في ذلك. (الكشاف)

إن تحديد أسباب النزول أمر يتوقف على الأذواق دون شك، وإلا فإن الآيات القرآنية كانت ستنزل على كل حال. غير أننا ندرك من هذا الحادث التاريخي بأية نظرية كان الكفار ينظرون إلى رسول الله ﷺ، وكيف أنهم كانوا يختلقون أفكاراً تافهة مريضة بُغية تحقير وازدراء النبي ﷺ. لقد كان أبو طالب عمّاً للرسول ﷺ، وكفله بعد وفاة جده عبد المطلب.

وما كان دافع الكفار من نسبتهم النبي ﷺ إلى عمه بدلا من أبيه إلا الازدراء الشنيع، فقالوا: كيف يمكن لشخص فقير ربا غير أبيه أن يُبعث إلينا نبياً

من عند الله تعالى؟ أولم يعلم هؤلاء الأغبياء أن أبا طالب لم يكن شخصاً أجنبياً بل كان عمّاً للرسول ﷺ، وإن الأخلاق والمثل العليا لا تحرم أن يترتب الولد في بيت عمه في حالة وفاة أبيه. وذلك أن الحياة العائلية إنما قوامها ذلك الميثاق القديم بأن الواحد منا لا بُد أن ينوب عن أخيه وقت الشدائد والمحن. أفلا يرون أن النبي ﷺ بنفسه كفل ابن عمه علياً ﷺ. ولو أن أبا طالب مات قبل أخيه عبد الله، تاركاً وراءه ولداً، لرباه الأخير في بيته.

لقد كان عبد الله والد النبي ﷺ فقيراً، ولو أن الكفار قصدوا الطعن في فقر النبي ﷺ فقط لحققوا هدفهم هذا بأن ينسبوه إلى والده الفقير، ولكنهم كانوا يرمون إلى أكثر من ذلك بقولهم "يتيم أبي طالب". كانوا يريدون القول: أهدا الذي عاش على لفاظات موائد الآخرين جاءنا اليوم ليعدنا بالحكم والملك!؟

التفسير

يستغرب الكفار هنا من نزول الوحي على أحدٍ منهم. وهذا الإحساس بالدونية يلزم الشعوب المنهارة والمنحطة المتردية. فيرون من المستحيل

أن يولد بين ظهرانيهم إنسان ذو شأن عظيم. فكان الكفار قد قنطوا، لترذيتهم وانهيأهم، لدرجة أنهم ما كانوا ليوقنوا أن الدواء الشافي موجود بين ظهرانيهم. وقد ظنوا أنه يجب أن يأتي أحد من الخارج يداويهم من الأمراض ويحقق لهم الرقي والازدهار.

وهذا بالضبط هو حال المسلمين اليوم. يقولون: سينزل عيسى عليه السلام من السماء ليتترعنا من حضيض المذلة والتخلف، ولكن ليس من الممكن أن يولد بيننا من يقدر على علاجنا من الأمراض. فما أشبههم بالأمم السالفة من هذه الناحية! القنوط ذاته والعلاج نفسه!!

كان العرب شعبًا لا طموح فيهم للرقي القومي، وظنوا أن لا دواءً لدائهم اللهم إلا أن يأتيهم غريب لنجدتهم. لذا فقد أخذوا بالدهشة الشديدة عندما أعلن أخٌ لهم من بينهم أنني أنا الذي سوف أعالجكم من دائكم، وأنا الذي سوف أرتقي بكم، وقالوا: كيف يدعي عمل المستحيل؟

والأمر الثاني الذي حيرهم هو ادعاء هذا الرسول بأنه مأمور بتحذيرهم أن ينتهوا عمّا هم فيه من فاسد الأعمال ويتبعوا الشرع الجديد. والقوم الذين تكون حالهم هذه يستغربون دائمًا

” أو لا يفهم هؤلاء أنه لو كان نظامهم الحالي نظامًا صالحًا لا عيب فيه، لما وجدوا في قعر المذلة والهوان. فلا بد إذن من القضاء على نظامهم الفاسد هذا قضاء تامًا لتسير الأمور على ما يرام. “

عندما يقول لهم الرسول: اقضوا على نظامكم الحالي واستبدلوه بهذا النظام الجديد.

والحق أن هناك تناقضًا صارخًا بين هذين الأمرين اللذين كانا وراء دهشة الكفار. فمن ناحية كان اليأس والقنوط قد بلغ منهم مبلغًا جعلهم يظنون أنه لن يُبعث من بينهم من يشفيهم من الأمراض، ومن ناحية أخرى كانوا يجادلون الرسول ﷺ عندما يحاول تغيير نظامهم الفاسد. هكذا تكون حالة الأمم المنهارة؛ لا يريدون أن يضحوا بشيء في سبيل نجاتهم، ولا يحركون ساكنًا بأنفسهم، بل ينتظرون أحدًا من الغرباء يأتي ليحقق لهم الازدهار والرقي دون أن يغير من نظام حياتهم القائم شيئًا. إنهم لا يريدون أن يقاسوا في سبيل التعلم مشقةً وعناءً، ولا أن يبذلوا من أجل الرقي جهودًا

وتضحيات، ولا أن يتخلوا عن العيوب والمسائى التي تغمرهم، إنما يقولون: فليأت آت من الخارج ويهلك عدونا لنملك كل شيء. أو لا يفهم هؤلاء أنه لو كان نظامهم الحالي نظامًا صالحًا لا عيب فيه، لما وجدوا في قعر المذلة والهوان. فلا بد إذن من القضاء على نظامهم الفاسد هذا قضاء تامًا لتسير الأمور على ما يرام.

والأمر الثالث الذي كان يثير استغرابهم هو قول الله تعالى لرسوله: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَهُمْ قَدَمٌ صَدَقَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾. أي أعلن بين الناس أن الذين سوف يتكون هذا النظام الفاسد ويتبعون تعاليمي هم الذين سوف يحققون الرقي والازدهار. مع أن أتباعه ﷺ (أولاً): ما كانوا في نظر الكفار أكثر منهم ذكاء وفطنة، وإنما كانوا يعتبرونهم من أراذل القوم، و(ثانيًا): كانوا يواجهون معارضة شديدة من قبل القوم الكافرين، و(ثالثًا): كانوا يدعون عمل المستحيل في رأي الكفار، إذ لا يمكن لقوم أن يحققوا الرقي إلا بثلاث:

١. أن يكون العاملون بينهم ذوي فطنة عالية.
٢. وأن يكونوا متحدين.
٣. وأن تكون أهدافهم قابلة للتحقق.

ولكن الكفار كانوا يعتبرون المسلمين محرومين من هذه المزايا، لذلك كان التعجب يَمَلِكُهُمْ فيقولون: كيف سيفوز هؤلاء الضعفاء في مراميهم؟ أتى لهم أن يقضوا على نظامنا القائم، ويأتوا مكانه بما هو أفضل منه ظاهراً وباطناً، فيصبحوا ملوكاً وحاكمين، ومقربين لدى الله. وقوله تعالى: ﴿عند ربهم﴾ يؤكد ضرورة تحقيق الازدهار بنوعيه: الروحاني والمادي، كما أشار الله به إلى فوزهم الكامل حيث نسبه إلى الله الذي بيده الفوز بكل أنواعه. وقوله ﴿إن هذا لساحر مبين﴾. أي قال الكفار عند سماع ذلك: إن صاحبنا يُجيد الكلام أيضاً، حتى يُظهرُ الباطل في صورة الحق، ويستغل بكل مهارة ضعف الفطرة الإنسانية، فيزرع الخوف في قلوب الضعفاء، ويغري أصحاب الجشع والحرص، لينضموا إليه. هذا الاعتراض نفسه يثيره الكتاب المسيحيون في هذه الأيام؛ فيقولون: إن محمداً ضم إليه العرب السذج بالتخويف والإغراء. ولكن قول الكفار العرب: ﴿إن هذا لساحر﴾ يكشف زيف اعتراض هؤلاء المسيحيين، ويبين أن العرب مع سذاجتهم المزعومة كانوا واعين ومدركين لمثل هذه الأمور، فكيف إذن انطلى عليهم خداع محمد ﷺ؟ والحق أن قلوب هؤلاء الطاعنين في رسالة محمد قد تشابهت بقلوب الكفار الأولين، وإلا فأين هو ذلك الدين الذي يعلن: من صدق تعاليمي فله الجحيم، ومن كفر بها فله جنات النعيم. الواقع أنه إذا اعتُبر الحديث عن الجزاء لمن يقبلون الحق إغراءً فلن نجد أية حقيقة ليس فيها إغراء. وماذا عسى أن يقول هؤلاء المسيحيون عن سيدنا المسيح ﷺ الذي وعد تلميذه بطرس بمفاتيح ملكوت السموات، وأعلن أن كل من لا يتبع تعاليمه سوف يُحرم من دخول ملكوت السماء، وقطع للمؤمنين به وعوداً وبشارات بأنواع الجزاء والإنعام. (إنجيل متى الإصحاحات ١٤ و١٨ و١٩).

إن تقديم المعلومة الدينية الصحيحة هو أساس قيام مجلة «التقوى» التي ما انفكت تقوم بذلك منذ تأسيسها. وبفضل الله تمكنت مؤخرا تحقيق رغبة الكثير من قرائها الأفاضل وذلك بنشر كتابين مهمين على شبكة الإنترنت، وهما:

١. الجن.. بين الحقيقة والخيال للأستاذ المرحوم محمد حلمي الشافعي (رئيس تحرير التقوى السابق)
 ٢. احذروا.. الدجال يجتاح العالم للكاتب السوري محمد منير إدلبي.
- وبإمكانك عزيزي القارئ تصفح الكتابين على العنوان التالي:

http://www.alislam.org/altaqwa/arabic_books